قضايا

«العلاقات السرية بين الوكالة اليهودية وقيادات سورية»، كتاب جديد للباحث الفلسطيني محمود محارب، يكشف أسراراً وتفاصيل كثيرة: كيف تمكّن القسم العربي في الدائرة السياسية التابعة للوكالة اليهودية من إنشاء جسور للتفاوض مع «حزب الكتلة الوطنية» في سورية؟ وكيف نجحت استخبارات القسم العربي في تجنيد عدد من العملاء ذوي «السمعة الوطنية»؟ الباحث صقر أبو فخر يقدم قراءة موسّعة في هذا الكتاب، هنا الجزء الثاني والأخير منها

محمود محارب يكتب مسترشداً بوثائق من الأرشيف الصهيوني

الوكالة اليهودية واتصالاتها في سورية [2/2]

صقر أبو فخر

في الجزء الأول من هذا المقال، تحدث الكاتب صقر أبو فخر عن كيفية قراءة الوثائق وكتابة التاريخ، مبينا أن «كشف الوثائق المخبوءة مهمة جليلة بالتأكيد، لكن الاكتفاء بمنطوق الوثائق والاقتصار على النصوص وحدها مسألةٌ ناقصة علميًا». كما تحدث عن الاختراقاتٍ التي أحدثتها الوكالة اليهودية والاستخبارات الإسرائيلية في جسد النخب «الوطنية» السورية، معرّجا على مواقف هذه النخب ومن توّرط منها. هنا الجزء الثاني من المقال.

الدروز وترحيل الدروز إلى جبل الدروز

تبلورت فكرة ترحيل دروز فلسطين من الجليل والكرمل إلى سورية لدى إلياهو أبشتاين (أيلات) في بدايات سنة 1937 مع أن الفكرة تعود إلى تاريخ أقدم. وزار آبا حوشي جبل العرب في سورية في نهاية أكتوبر/ تشرين الأول 1637 بحجّة تقديم التهنئة لسلطان الأطرش، الذي عاد من المنفى في 1937/5/18، وراحت الوفود تتقاطرعلى قريته للسلام عليه، لكنه لم يلتقِ سلطان الأطرش قط (أنظر: قيس فرّو، دَروز في زمن الغفلة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2019، ص 53 و62). ثم زار آبا حوشي جبل العرب ثانية في 1938/7/31، أي بعد تسعة أشهر، وتمكّن في هذه الزيارة من لقاء سلطان الأطرش، بعدما قدّم نفسه سكرتيرًا لنقابة العمال في حيفا، لا ناشطا في الحركة الصهيونية، وأنه لا يتوانى عن تقديم المساعدات للعمال والفلاحين العرب في حيفا، ومن بينهم العمال والفلاحون الدروز. وقد عرض آبا حوشي على سلطان الأطرش فكرة نقل دروز فلسطين إلى جبل العرب فأجابه: «إذا رغب إخوتنا أن يأتوا برضاهم، ورأوا في ذلك فائدة لهم، فنحن لا نعترض. لكنني أعتقد أن هناك مخاطر كثيرة، ومن ثم نحن لا نقبل بأن ينظر إلينا إخواننا المسلمون نظرة الشك أو الخيانة» (راجع: سعيد نفاع، العرب الدروز والحركة الوطنية الفلسطينية، المختارة – لبنان: الدار التقدمية، 2010، ص 139). وبالطبع، لم يُعطِ سلطان الأطرش موافقته على خطة الترحيل، وتذرّع بأن هناك صعوباتٍ مع البريطانيين في هذا الشأن، وأن الوقت غير ملائم. وفوق ذلك، لا توجد في الأراشيف الصهيونية أي وثيقة أو رسالة مكتوبة بخط سلطان الأطرش تشير إلى موافقته على فكرة نقل دروز فلسطين (قيس فرّو، مصدر سابق، ص 92).

يكشف كتاب محمود محارب تفصيلات العلاقة بين الوكالة اليهودية وبعض قادة الدروز في فلسطين وسورية، ويضيء الزوايا المعتمة في سيرة يوسف العيسمي (أبو حمد)، ويؤكد أن يوسف العيسمي هذا هو الذي وعد آبا حوشي بالسعي إلى الحصول على موافقة سلطان الأطرش على فكرة ترحيل دروز فلسطين إلى سورية، وأنه تلقى الأموال بصورةٍ منتظمةٍ من الوكالة اليهودية لتسهيل نقل الدروز. بيد أن هذه الفكرة فشلت، ولم يوافق عليها سلطان الأطرش، مع أنه تفحصها واستطلع مزاياها. وكان يوسف العيسمي يزيّن تلك الفكرة، بالزعم أن عدد الدروز سيزداد في سورية في ما لو جاء إليها دروز فلسطين، وأن الأموال المتدفقة جرّاء انتقال الفلسطينيين الدروز بأموالهم ستجعل الحياة مزدهرةً في جبل العرب. وثمة شك كبير في أن الوكالة اليهودية وبعض قادة الدروز قد توصلوا إلى اتفاقٍ في شأن ترحيل الدروز، وكل ما في الأمرً أن آبا حوشي ويوسف ألفيا (سليم) صاغا أفكاراً في هذا الأمر في شكل مشروع اتفاق. يقول قيس فرّو إن سلطان الأطرش لم يكن يعلم بما يقوم به يوسف العيسمي مع الوكالة اليهودية لتنفيذ خطة نقل دروز فلسطين، وأنه كان يزخرف رسائله إلى آبا حوشي باسم سلطان الأطرش ليقنع مشغليه الصهيونيين بشرعية نشاطه (قيس فرّو، مصدر سابق، ص 124). ويضيف قيس فرّو أن الأمير حسن الأطرش كان ضد فكرة نقل دروز فلسطين إلى السويداء (قيس فرّو، المصدر السابق، ص 91). وعلى منواله، رفض الفكرة أيضًا عز الدين الحلبي وعلي عبيد، وهما من كبار المجاهدين في الثورة السورية الكبرى، ومن الرفاق المقرّبين جدًا من سلطان الأطرش الذين يتشاور معهم في الصغيرة والكبيرة.

فشلت فكرة نقل دروز فلسطين إلى سورية، وفشل يوسف العيسمي في إمرار مشروع النقل ذلك. وفي رسالة من العيسمي إلى يوسف ألفيا (شلومو أو سليم)، مؤرخة في 1939/8/22، اعترف العيسمي بأن سلطان الأطرش غير مستعد لشرعنة خطة ترحيل دروز فلسطين، ودعوتهم إلى المجيء إلى جبل العرب، لأن الدعوة سابقة لأوانها، ولا يصح أن ندعوهم إلى الرحيل عن فلسطين (قيس فرّو، مصدر سابق، ص100). وفي 1939/11/2 كتب آبا حوشي تقريرًا جاء فيه أنه مضطرٌّ إلى وقف نشاطه كله في موضوع ترحيل الدروز؛ ففكرة النقل لم تنفذ جراء نشوب الحرب العالمية الثانية، ولأن أحدًا من الفرقاء المعنيين لم يكن معنيًا بها (سعيد نفاع، مصدر سابق، ص136)، علاوة على أن الفلسطينيين الدروز رفضوا الترحيل، ورفضت سلطات الانتداب الفرنسي هذا البرنامج، لأنها ارتابت في أنه سينفذ بتمويل يهودي ودعم بريطاني، بحسب ما جاء في تقرير سرّي كتبه إلياهو أبشتاين (سعيد نفاع، المصدر السابق، ص 135).

يزيح كتاب محمود محارب الأستار عن هذه الخفايا وأسرارها، ويميط اللثام عن متورّطين في خطة الترحيل، استنادًا إلى الوثائق الصهيونية. وكانت الاتصالات اليهودية بالدروز في سورية تهدف، في البداية، إلى وقف تطوع الدروز في ثورة 1936 الفلسطينية، ووقف إمداد الثورة الفلسطينية بالسلاح. أما فكرة ترحيل الدروز الفلسطينيين فقد تبلورت في ذلك السياق بالتدريج (قيس فرّو، مصدر سابق، ص 50). غير أن آبا حوشي كان يعتمد، في تقاريره إلى رؤسائه، على ما يرسله إليه من سورية يوسف العيسمي، وما يخبره به حسن أبو ركن من دروز فلسطين. وهذان زعما أن سلطان الأطرش لا يشجّع الدروز على الانضمام إلى الثورة الفلسطينية. وتبين للقسم السياسي في الوكالة اليهودية أن موقف سلطان الأطرش من هذا الشأن لم يكن مطابقًا لرسائل آبا حوشي، بل مخالف لها، فمراسل صحيفة الدايلي تلغراف البريطانية آرثر ميرتون، الذي كان يقدم خدمات استخبارية للوكالة اليهودية، أرسل إلى القسم السياسي في الوكالة، بعد رحلة قام بها إلى لبنان وسورية، والتقى في خلالها سلطان الأطرش وأخاه علي، تقريرًا جاء فيه أن سلطان الأطرش وشقيقه علي أكدا له مشاركة الدروز في الثورة الفلسطينية، وأنهم مستعدون للاشتراك فيها ثانية، إذا تجددت لأنهم مناصرون للقضايا العربية (قيس فرّو، مصدر سابق، ص 52-53). أما آبا حوشي فيصف سلطان الأطرش بأنه ضد اليهود ومؤيد للحاج أمين الحسيني (قيس فرّو، المصدر السابق، ص 61). وفي أثناء نفي سلطان الأطرش إلى الأردن، كان على صلةٍ دائمة بكل من أكرم زعيتر ومحمد عزة دروزة ومعين الماضي، وهؤلاء اتفقوا مع سلطان الأطرش على زيادة عدد المقاتلين الدروز في الثورة الفلسطينية (قيس فرّو، ص 52).

يقول قيس فرّو إن الناشطين الصهيونيين أقحموا اسم سلطان الأطرش في تقاريرهم لإيهام يتسحاق بن تسفي بإمكان عقد اتفاق بين الدروز والصهيونيين (قيس فرّو، ص 52). وهذه إشارة ذات أهمية خاصة تتعلق بالوثائق التاريخية وكيفية قراءتها؛ فليس مستبعدا أن يبالغ كاتبو التقارير، أمثال آبا حوشي ويوسف ألفيا، في تقدير الإنجازات التي حققوها في شأن خطة ترحيل الدروز الفلسطينيين إلى سورية. وفضلاً عن ذلك، يقول قيس فرّو: «إن معلومات شلومو ألفيا لم تكن دقيقة بدليل أن ألفيا زوّد يتسحاق بن تسفي في 1936/10/26 بمعلومات عن أن السلطات البريطانية نجحت في القبض على قاسم الغضبان (من المتطوعين الدروز)، وأن مجموعة حمد صعب غادرت فلسطين. وتبين من خبر مصور منشور في صحيفة الدفاع الفلسطينية في 1936/11/18، أن حمد صعب شارك في حفل وداع فوزي القاوقجي، قبيل عودة الأخير إلى سورية، وأنه لم يغادر فلسطين كما زعم شلومو ألفيا (قيس فرّو، مصدر سابق، ص 50-51).

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن آبا حوشي لم يكن يعرف العربية، وأن شلومو ألفيا ودوف هوز هما من كان الواحد منهما يترجم له محادثاته مع الدروز الذين اشتهروا بالكلام المزخرف والمنمق. وبناء على ما كان يفهمه آبا حوشي منهما، كان يصوغ تقاريره إلى القيادة الصهيونية التي كان يخالطها أحيانًا عدم الدقة في المعلومات. ومهما يكن الأمر، فقد فشلت «خطة» ترحيل دروز فلسطين لأسباب عدة، وكان السبب الحاسم هو موقف سلطان الأطرش الذي قال في ما بعد: «لقد نصحت أبناء الطائفة الدرزية في فلسطين صراحةً بعدم مغادرة أرضهم مهما تحملوا أو سيتحملون من وطأة الاحتلال. ولقد دلت الأيام أن التشبث بالأرض خيرٌ من التشرّد في أصقاع الوطن العربي. إن التقصير في حماية الأرض الفلسطينية لم يقف عند هذا الحد، بل إن اللاجئين الفلسطينيين عانوا الأمرّين من معاملة بني جلدتهم رغم شدة البؤس الذي يعيشون فيه» (أنظر: سلطان الأطرش، أحداث الثورة السورية الكبرى، دار طلاس للدراسات والنشر، دمشق، 2006، ص 370).

(غلاف الكتاب)

> لم يُعط سلطان الأطرشَ موافقته على خطة ترحيل دروز فلسطين من الجليل والكرمل إلى سورية
>
> يزيح الكتاب الأستار عن خفايا وأسرار كثيرة، ويميط اللثام عن متورّطين في خطة الترحيل، استناداً إلى الوثائق الصهيونية

الثورة والسلطة والخيانة

يثير كتاب «العلاقات السرية بين الوكالة اليهودية وقيادات سورية» الأسى والغضب معًا، فضلاً عن حيرة التفكير بما جرى. ويعجب الواحد منا، أشد العجب، ويتساءل: كيف يمكن أن يتحوّل وطنيون مشهود لهم في مقارعة الاستعمار الفرنسي، أمثال نسيب البكري وفوزي البكري ويوسف العيسمي، إلى عملاء للوكالة اليهودية؟ وكيف أن رجالاً كبارًا يهبطون، في أحوال معينة، إلى مسلك متصاغر، إما تحت جاذبية الثروة، أو جرّاء الميول الطائفية، فشكري القوتلي الوطني، وهو أحد أكبر رجالات العرب، والذي وقّع قرار الوحدة السورية – المصرية مع جمال عبد الناصر، تصرّف بطريقةٍ تشوبها روائح الطائفية مع سليمان المرشد، الذي أعدم في عهده ظلمًا، ولم يتورّع عن التضييق على العلويين لأسباب مذهبية. وكان موقفه من فصل لواء الإسكندرون عن سورية باردًا جدًا، وفسر بعضهم هذه البرودة بأن غالبيةً سكان اللواء العرب هم من العلويين. وعلى غراره، فعل جميل مردم، الذي زار تركيا وقابل مصطفى كمال (أتاتورك) واجتمع إلى جلال بايار، رئيس الوزراء، في 1937/12/24، كأن الإسكندرون لم يحدث له أي شيء، وكأنما فرنسا وتركيا لم تتفقا علنًا في حزيران/ يونيو 1937 على فصل اللواء عن سورية. أما سعد الله الجابري، الذي اعتقل عبد الرحمن الشهبندر في إحدى المرّات، فلم يخجل من أن يصرّح أمام مجلس النواب السوري بالقول: إن الحكومة السورية قد قامت بكل ما يترتب عليها [في شأن الإسكندرون] وعملت ما يجب عمله! وهؤلاء جميعًا من حزب الكتلة الوطنية.

أما أديب الشيشكلي (والاسمان القوتلي والشيشكلي ينتهيان بحرف لي) الذي كان أحد قادة جيش الإنقاذ في فلسطين، والذي كان محل إعجاب جمال عبد الناصر، ثم صار رئيسًا للجمهورية السورية بانقلاب عسكري، فقد تلوّث بالطائفية وسقط في مزابلها. وفي سبيل العودة إلى الحكم، لم يتردد في الاتصال بإسرائيل في سنة 1956، ثم قتل بحسرته.

مقارعة الاستعمار والسعي إلى التحرّر الوطني مهمة تاريخية، كانت دائمًا تجمع شتات الشعب في سبيل تلك الغاية السامية. لكن الطائفية لا تجمع إلا الطائفيين، وهي تشرذم الشعب، وتعيده إلى مكوناته التي كان عليها قبل نيله الحرية. وبين الانتماءين، القومي والطائفي، فجوة فاغرة سقط فيها وطنيون كثيرون في ديار العرب.

وما برحت الشعوب العربية، خصوصًا في لبنان وسورية والعراق، تدفع أثمانًا غالية من دماء أبنائها في جحيم الطائفية المهلك. ولعل كتاب محمود محارب يتخطى كونه كتابًا في التاريخ القريب، فيصبح درسًا تاريخيًا لجميع من داس على الكرامة الوطنية لبلاده، وتعاون مع الصهيونية أو مع الاستعمار، الأمر الذي ألحق العار باسمه إلى زمن طويل.

(كاتب عربي)

أسى وغضب وحيرة

يثير كتاب «العلاقات السرية بين الوكالة اليهودية وقيادات سورية» الأسى والغضب معا، فضلا عن حيرة التفكير بما جرى. ويعجب الواحد منا، أشد العجب، ويتساءل: كيف يمكن أن يتحول وطنيون مشهود لهم في مقارعة الاستعمار الفرنسي، أمثال نسيب البكري وفوزي البكري.. إلى عملاء للوكالة اليهودية؟ وكيف أن رجالا كبارا يهبطون، في أحوال معينة، إلى مسلك متصاغر، إما تحت جاذبية الثروة، أو جراء الميول الطائفية، كما حدث مع شكري القوتلي الذي تصرّف بطريقة تشوبها روائح الطائفية مع سليمان المرشد